الطفولة المعذبة

قصة

(٣)

ظل محسن رهين هـذه الحجرة الضيقة الخانقة طيلة اليوم وحيداً حزينا مطرقا حتى بدأت الدنيا تظلم معلنة قدوم الليل ، فدب الذعر فى قلب الطفل الغرير ، وأصبح خياله المنطلق نهبا للأفكار السوداء والوساوس ... وخشى أن ينسوه فى هذه الحجرة المخيفة أو يهملوه ... ولا زال كلام بعض الطلبة بأن هـذه الحجرة (مسكونة) مرتسما فى ذهنه ... وكان كثيراً ماسمع القصص الغريبـة الخارقة التى يتناقلها الناس عن هـذا الخروف (المسلسـل) بإيمان وتأكيد ، وخصوصا تلك التى رواها أحد الطلبة ممن كان نصيبهم السجن فى هـذه الحجرة والتى أكد فيها أنه كان يسمع أصوات سلاسل لخروف موهوم ... وكان قلب محسن يمتلىء بالفزع وهو يصغى إلى هذه القصص فكيف به الآن وقد أصبح منها غير بعيد ... وراح يتصور هذا الخروف بسلاسله الضخمة التى يجرها جراً كلما مشى فتثير ضجيجاً رهيباً فى السكون الشامل ... وبعينيـه اللتين تبرقان فى الظـلام الدامس ، ويكاد الشرر يتطاير منهما ... وبأنيابه الطويلة الحادة (كالسكاكين) وهو يكشر ويتهدد ... وبشعره الكثيف الفاحم الذى يتدلى على جسمه الضخم وعلى وجهه — على الأخص —

... وما كادت هذه الصـورة المخيفة تكمل فى خياله ويضعف فيها جانب الوهم ويقوى فيها جانب الحقيقـة حتى استسلم لها بكل وجدانه وجوارحه ... وخيل إليه فجـأة أن الجدار ينشق عن هذا الشبح المخيف ، فهب من مكانه مذعوراً والتفت ولكنه لم ير شيئا . . ولكن مخاوفه بالرغم من ذلك أخذت تزداد ، وخيالاته تكبر . . وانتظر أن ينقض عليه هذا الجنى ذو السلاسل الحديدية بين وقت وآخر . فأخذ يقترب إلى الشباك الضيق ويلتصق به إلتصاقاً شديداً ؛ ووصل إلى مسامعه وهو فى هذه الحالة من توتر الأعصاب وهيجان العواطف صوتاً ضئيلا حسبه مقدمة لما هو مقبل. فهم بأن يصرخ من الهلع لولا أن لاحظ فجأة الفراش وهو قادم نحوه وبيده مفاتيح الحجرة ؛ فتنهد تنهدة الخلاص وتراخت أعصابه وهدأت عواطفه . . وسمع الفراش وهو يعالج القفل وفتح الباب أخيراً وأطل برأسه وقال له :

— باستطاعتك الآن أن تعود إلى بيتكم . . .

فخرج محسن بسرعة من الحجرة وهو لا يصـدق أنه نجا وعبر فناء المدرسة وهو يلتفت خلفه مذعوراً كأنه يخشى أن يغير هذا الفراش رأيه ويعيده مرة أخرى إلى هذا السجن الرهيب الملىء بالمخاوف ....

وعندما صار محسن فى الشارع لم يتخذ طريقه إلى البيت ، فإن نفسه لا زالت مليئة بالغيظ والحنق ، ولم يستطع خوفه من والده أن يتغلب على مقته له ؛ فصمم على الذهاب إلى ابن خالته (عزيز) ليبثه شكواه ؛ ويحكى له قصة هذا الظلم الذى انصب عليه ... ولم تدع عواطفه المتدفقـة التى تملأ كيانه ؛ وتكاد تنفجر لأى عارض وفى أى لحظة مجالا للتفكير فى عاقبة الأمر ومغبة هذه المخاطرة . وكان بيت خالته بعيداً. فى الطرف الآخر من المدينـة ؛ ولكن ذلك لم يثنه عن تصميمه ، فاسرع الخطو وهو يفـكر فيما سيقوله وفيما ينوى أن يعمله .. نعم أنه لن يعود مرة أخرى إلى المنزل حيث العذاب والهوان ، بل انه سيبقى عند خالته وسيتبرأ من والده ، أما والدته فإن حنت إليه وعطفت عليه فبامكانها أن تزوره فإنها لا تسـتطيع أن تمنع عنـه شر هذا الوالد الظالم ... ... وسـيتخذ (محمـد) والد عزيز أباً له ، وسيخلص له الطاعة ، فإنه يكن له حباً ، كما أن الآخر يبادله هذا الحب ... وستتوثق صداقته مع عزيز وسيقضى معه أوقاتاً طيبة لأنه سيكون معه دائماً ... ووضحة ... ابنة خالته الصغيرة ... ما ألطفها وما أظرفها ! ... سيلعب معها ولا شك كثيراً ؛ وسيتحدث معها كثيراً ... لن يشعر هنالك بالحرج كما يشعر أمام الغرباء ؛ ولن يعتريه الخجل أو يرتبك فى كلامه معها ... بل أنه سيتحدث بملء صوته فلن يعيب عليه أحد هذا السلوك أو يوبخه ... وسيضحك أيضاً حين يحلو له الضحك بحرية تامـة ؛ فلن يمنعه أحد أو يعيره إنسان ... ... إنه لا يزال يتذكر جيداً كيف مر ذلك اليوم — الذى زارهم فيه مع أمه وأخته (منور) — بسرعة غريبة ؛ وكأنه ساعة أو بعض ساعة ! ... لقد كان يوما من أسعد الأيام فى حياته ... نسى فى أثنائه همومه ومتاعبه لحظة من الزمان؛

وفارقه شبح والده المخيف الذي يهدده بين لحظة وأخرى ... وهو يلعب مع «وضحة» بالطين ... يكيفانه بين أيديهما ويصنعان منه أشكالا مختلفة على هيئة الماعزة أو القطة ... أو يصنعان منه (رحاة) يركزان فيها ـ وهي طرية ـ عوداً صغيراً هو بمثابة مقبضها ثم يضعان هذه الأشكال في الشمس حتى تجف وتصبح صلبة قوية ... وكانا أيضاً يثرثران كثيراً وهما مشغولان لاهيان بعمل هذه الالعاب ... كم هي مسلية ومضحكة حينما تذكر له ببراءة الأطفال أنه الآن بمثابة زوجها ... أليست هي ابنة خالته!!. ولكنه يجيبها بأنهما لا يزالان صغيرى السن ولا يتزوج إلا الكبار ! ! . . فتقول له جادة وكأنها تريد أن تطمئن ... وهل ستتزوجني إذا كبرت ؟ . فيؤكد لها أنه سيفعل ! . . فتطرب أيما طرب ويفيض السرور على وجهها ، ويتجلى الرضا في محياها وفي عينيها ... وانتشى لهذه الذكريات وانغمر فيها وراح يتمثلها في ذهنه كأنها قد عادت إليه مرة أخرى . . . ولم يشعر بأنه ندم على ما أقدم عليه ، بل راح يمني نفسه بالسعادة المقبلة والنعيم المنتظر ... فسكن طائره ، وهدأ ثائره ، فرفع رأسه ليتثبت من معالم طريقه ... ولكن ماذا حدث ؟ ! .. إن هذه البنايات التي تحيط به من الجانبين غريبة عليه لم تتعود عيناه رؤيتها قبل هذه المرة ... واستبدت به الحيرة .. وارتبك ... أيمكن أن يكون قد ضل الطريق ؟ ! ! . أم يا ترى أن الظلام هو الذي غير المناظر في عينيه ... أيمضي إذن قدما في طريقه ؟ صحيح أنه لم يزر خالته منذ أن استقروا في هذا البيت الجديد النائي إلا ثلاث مرات .. وكانت زياراته في الصباح ، إلا أنه كان يعتقد أنه يعرف الطريق إليه ... ربما كان إذن واهما في تفكيره ... وراح يحاور نفسه ويداورها ويحاول خداعها بأنه على صواب حتى اقتنعت ، فمضى مسرعا في طريقه لا يلوي على شيء ... وأخذ يطيل النظر في وجه كل من يقابله من المارة في أنوار المصابيح الخابية ، فتبدو له سحنات غريبة لم يعهدها ولم يتعرف على أحدها ... وأخذت عينه ـ بعد أن قطع مسافة ـ قهوة تتلألأ في جوانبها الأنوار ، وتضج بأصوات الرجال ، وقد برز من بينها صوت المذياع وهو يردد أغنية ... ودار في باله أن أباه قد يكون في هذه القهوة فهو يعرف أنه يغشى المقاهي كثيراً ويقضي فيها كل أوقات فراغه ، وخشي أن يراه على ضوء هذه الأنوار . فتكون واقعته سوداء ... فلجأ إلى الظلمة الحالكة وأسرع في مشيته حتى لا يمكن الفرصة لوالده لو كان هناك في أن يلاحظه ، فإنه ليفضل أن يكون هائماً هكذا في الشوارع على أن يكون في قبضة والده في هذه الساعة ... ولكن هذه القهوة ! ! . . إنه لم يتعود رؤيتها أو ملاحظتها في المرات السابقة ... أيكون ذلك لأنه كان يزور خالته في وضح النهار ، أو أنه لم يوجه إليها انتباهه !

ولاحظ — وهو في هذه الحيرة — رجالا يتحدثون فخف إليهم ليسألهم أين هو ؟ . . ولكنهم كانوا منهمكين في الحديث ، ولم ينتبه إليه أحد أو يسمعه ، وهو يتمتم بصوته الخافت المضطرب ... وخجل أن يسألهم مرة أخرى أو أن يرفع صوته ، فتركهم ومضى إلى سبيله حائراً وجلا يسير على غير هدى ... ورأى أن الأنوار — وهو يبتعد — قد بدأت تختفي من جوانب الطريق ، وأن الشوارع أخذت تخلو من المارة ... وأن الضجيج أخذ يخفت رويداً رويداً حتى لم يكد يصل إلى سمعه إلا أصوات ضئيلة مختلطة تتضح حين يهب الهواء ، وتختفي أو تنقطع حيناً آخر ...

فأخذ دبيب اليأس يسري في نفسه ، وتحول الشك عنده إلى يقين من أنه ضل الطريق ... وراح ينظر إلى هذه البنايات القائمة كالأشباح وقد لفها الظلام وران عليها الصمت ... كأن أهلها وذويها قد هجروها وتركوها مأوى للعفاريت ... وأرعبته الوحدة في هذه الشوارع المقفرة الموحشة ، وفي هذا الجو الرهيب ، فارتجفت أوصاله واصطكت ركبه من الخوف ، وأخذ قلبه يدق بعنف كأنه سجين يريد الخلاص ، وبلغ الاعياء به كل مبلغ ؛ ووجد أنه في حاجة إلى البكاء ، فبكى ... وسرى صوته في هذا الليل البهيم ، وفي هذا السكون الشامل ، فسمعه رجل كان ذاهباً إلى أحد (الدواوين) ... فتوجه إلى الطفل التائه ووضع يده على ظهره بلطف وانحنى عليه وراح يتأمل وجهه وقد انهمرت من عينيه الدموع . . . وقال له :

— لماذا تبكي يا بني ؟ . من ضربك ؟ .

ولم يعهد محسن هذا الحنان من أحد ، واستغرب كيف يعطف عليه هذا الرجل الغريب وهو لم يره إلا الآن ... وكان هذا العطف كافياً لأن تسكن إلى الرجل نفسه ، وتطمئن إليه ، وتزول مخاوفه ... فأجابه :

— لم يضربني أحد . . . ولكني ضللت طريقي . .

— وأين بيتكم ؟ ..

فصاح محسن منفعلا :

— لا . . . لا . . . أنا لا أريد أن أذهب إلى بيتنا . إنى أخشى من أبى . . . سيضربنى .

— ومن هو أبوك ؟ .

— عبد الكريم الراجى .

ولم يبد على الرجل أنه يعرف أباه ، ولكنه أخذ يهدئه ويطمئنه قائلا :

— كفّ عن البكاء يا بنى ولا تخش شيئاً ...

وأخذه من يده وقاده معه بعطف بالغ حتى وصل باباً استطاعت أذنا محسن المرهفتان أن تسمعا من ورائه لغطاً وأصواتاً لرجال يتحدثون ... وفتح الباب ودلف الرجل وهو يمسك بمحسن ، وتخطى الفناء وقاده إلى حجرة الديوان ، فوجد محسن رجالاً كثيرين وقد جلسوا على الأرائك الوثيرة ، وبدا فى صدر المجلس (راديو) إلا أنه كان مقفلاً .. وعم الصمت الحجرة ، وانقطع اللغط ، وتوجهت الأنظار ، وبدا على سيماء بعضهم الدهشة لرؤية هذا الطفل الذى لا زالت عيناه مبللتان بالدموع ... وحياهم الرجل أخيراً فردوا عليه التحية بأحسن منها ، وجلس وأجلس الصغير بجانبه ... وسأله أحدهم وكان فى الصدارة قريباً من (الراديو) ... وخيل لمحسن أنه هو صاحب المجلس ...

— ما الخبر يا أبا صالح ؟ ... ومن هذا الطفل ؟

— هذا المسكين اسمه (وانحنى على الصغير يسأله) — ما اسمك يابنىّ ؟ ...

وأجابه محسن بصوته المتعثر الهزيل .

— محسن ...

واستمر (أبو صالح) فى كلامه قائلاً :

— اسمه محسن ... الظاهر أنه قد ضل الطريق إلى البيت .. فهل منكم من يعرفه ؟ ...

وسأله أحد الجالسين وهو قابع فى زاوية الحجرة قد التف بعباءته ... ولم يستطع محسن أن يميز ملامحه فقد كان فى الظل ... إلا أن نور (سيجارته) كان يتألق وهو يسحب منها نفساً ... قال :

— ابن من ؟ ...

فأجاب أبو صالح ...

— لقد ذكر لى أن أباه يدعى عبد الكريم الراجى .

وصاح أحد الجالسين :

— ها ! ! . عبد الكريم الراجى ! . . إنى أعرفه معرفة جيدة ، فإن لى معه صلات تجارية ...

— فهل يمكنك إذن أن توصله إلى أهله ... لاشك أنهم يبحثون عنه الآن فى كل مكان ...

— لا مانع عندى مطلقاً .

وقام الرجل من فوره من مجلسه وتوجه إلى الطفل وقال له :

— قم يا بنى ... سأوصلك إلى المنزل .

فردّ عليه محسن بصوته الوجل المضطرب .

— كلا ... لا أريد أبى ... سيضربنى ... أريد أن أذهب إلى بيت خالتى .

— لا تخش يا بُنىّ ... فلن يضربك ما دمت معى ... هيا بنا ... وخرج الاثنان من المجلس وعاد الباقون إلى ما هم فيه من حديث ... وشعر محسن وهو يمشى بجانب هذا الرجل أنه لا فكاك له من هذا الأب ... ويا ويله الآن حينما يعود إلى البيت ... لايكاد يدلف حتى يستقبله بوجهه العابس البغيض ، وبنظراته الغاضبة ... ويقذفه بشتائمه ثم ينهال عليه ضرباً بكل ما يقع تحت يده ... ولن يشفع له بكاء ... ولن يستطيع أن يخلصه من قبضته أحد ... صحيح أن أمه سترثى لحاله ، وسيتفطر قلبها حزناً ، ولكنها لن تستطيع أن ترد بطش أبيه ... أنها عاجزة حتى عن الدفاع عن نفسها حينما يغضب عليها ويثور بها ، فكيف يمكن أن تحميه هو ؟ ! ... ... وما عذره الآن حينما يسأله عن هذه الغيبة ؟ ... أن بيتهم ليس بعيداً جداً عن المدرسة حتى يتأخر إلى هذه الساعة من الليل ... ثم ان هذا الرجل الذى يسير الآن بجانبه لاشك سيخبر أباه بكل شىء ... وسيكون موقفه عندئذ فى غاية الحرج ... ما الذى ذهب به إلى هناك ؟ لماذا لم يعد إلى البيت حال خروجه من المدرسة ؟ ... ألم يمنعه من مغبة التأخير ؟ ألم يكن العقاب الذى نزل به فى هذا اليوم بسبب التأخير ؟ . وكان له أيضاً عذر فى ذلك ، أما الآن فلا عذر له ولا حجة عنده ... من المحال أن يعترف له بكل شىء ويطلعه على كل نواياه ، وإلا فالويل له ... ... الأحسن له أن يصمت ... نعم ... ليس له إلا أن يصمت ... ولكن اخشى ما يخشاه هو أن يعود ويخبر المدير بأمره ويطلب إليه عقابه ... ...

وسيقسو المدير فى عقابه واهانته هـذه المرة ... وسيحجزه أيضاً فى حجرة العقاب (المسكونة) ... وانتفض جسمه لهذا الخاطر ، وتدفقت الذكريات المخيفة (التى امتحنها هذا المساء) إلى ذهنه متلاحقة قوية مجسمة ... فارتاع واقشعر بدنه وتوقف فجأة ... ... فاستغرب الرجل وانحنى عليه يسأله (ماذا بك يابنى ؟ ... أتعبت ؟ ... لا بأس فقد وصلنا .. لم يبق إلا بضع خطوات) ..... وكان الرجل صادقاً فلم يكد يسير مسافة بسيطة حتى وقف أمام المنزل وطرق الباب ... وبعد هنيهة سمع محسن صوت أمه من خلف الباب وهى تقول بلهفة ظاهرة ...

— من ؟ ...

— هذا محسن ولدكم ... الظاهر أنه قد تاه ...

ولم تتملك الأم المسكينة نفسها فصاحت من الفرح والدهشة ...

— محسن ؟ ! ... جزاك الله خيراً ... فقد تعبنا ونحن نبحث عنه منذ المساء دون جدوى ...

ودخل محسن البيت فاستقبلته أمه بضمة قوية أودعتها كل ما يحمله قلب الأم من حنان وعطف ... وقالت له وعينها تدمع من التأثر ...

— كيف هان عليك أن تذهب وتتركنا هكذا حائرين ؟. لقد بحثت عنك أختك (منور) فى كل مكان دون طائل... حتى لقد ذهبت بى الظنون والمخاوف كل مذهب ..... خشيت أن تكون قد دهمتك سيارة ...

ورأته متردداً متلكئاً فى الدخول ، فقدرت ما يدور فى ذهنه ، وقالت له مطمئنة .

— لا تخش شيئاً ... أبوك غير موجود ... لقد خرج من البيت قبل المغرب ولم يعد حتى الآن ...

فارتاح لسماع هذه الكلمات ، واطمأن قلبه وفارقته مخاوفه ..... وقدمت له أمه الطعام خالا .

وفى هذه اللحظة فقط أدرك محسن أن الجوع يقرص معدته ولكن شهيته لم تكن متفتحة للأكل فقد كان منهك القوى خامل الأعضاء ، فاكتفى ببضع لقيمات ... ولاحظت أمه منه هذا الفتور والاعياء فلم تشأ أن تضايقه بالأسئلة الكثيرة التى تجول فى رأسها ... وقادته إلى فراشه فالقى نفسه القاء وهو يفكر فى شىء واحد ... أنه لا خلاص له من هذا المنزل ... وأنه سيعيش فيه حتى الموت ..... وكدّره هذا الخاطر وأقلقه ، ولكن سلطان النوم كان أقوى من سلطان الخيال ، فلم يلبث أن استغرق فى نوم عميق.

على زكريا الأنصارى

استدراك :

هذه بضعة سطور حذفت فى العدد الماضى سهواً من مجلة « البعثة » ص ٣٧ — سطر ٢٥ من النهر الأول ...

— محسن عبد الكريم ؟ ...

وذهل محسن وهو يسمع المدير ينطق اسمه كاملا وصعد الدم ساخناً إلى وجهه ، ولم يكد يفيق من هول هذه المفاجأة حتى سمع صوت المدير وهو ينطق اسمه بصوته الجهورى الواضح مرة أخرى .

— محسن عبد الكريم الراجى ... ليحضر إلى هنا ...

وتهامس الأطفال الذين يحيطونه الخ ... الخ ...

دار العلم للملايين

أهدانا صديقنا الأستاذ الكبير منير البعلبكى الكتاب الرابع من سلسلة « علم نفسك » التى تصدرها « دار العلم للملايين » ببيروت للدكتور « جبسون » وقد نقله إلى العربية الأستاذ منير ، كما أهدانا كتاب « أنا عائد من مراكش » للكاتب الانجليزى « روم لاندو » ترجمة (أبو الريحان) ، وهو « قصة نضال مراكش وسلطانها العظيم من أجل الحرية والاستقلال والمجد » فللأستاذ الكبير خالص الشكر وصادق الثناء على هذه الهدية ، ولهذه الدار آيات الاعجاب والتقدير على ما تقوم به خدمات للأمة العربية بتعريبها نفائس الغرب .

التفسير الواضح

صدر الجزآن الرابع والخامس من هذا التفسير المختصر للقرآن الكريم الذى يقوم بوضعه الشيخ محمد محمود حجازى من علماء الأزهر الشريف نسأل الله أن يوفق المذكور إلى اكمال هذا السفر النفيس وينفع به المسلمين .